

هي الطريق تبحث عني وقمم الأشياء، تطل من الشرق في وتنغمر بالماء.. في أول الذاكرة.. تبرز كبحيرات السود التي تأكل المساحة ورائحة وعشب الصحراء وتمتد. والطريق هي الطريق، أترى؟ أم يا ترى هي لا ترى؟ عبق من البساطة كمنفضة سجاير حجرية تنفي ما تبقى من التبغ، والدخان يتطاير... يتطاير كطفل صغير يتعريش على شجر خرّوب ويحام بأن لا يرى.. ترى، أختبي من الحر؟ في المساء، تخلق ذاكرة من أبواب الله من الأفق للأفق، والبيت الصغير في وسط اللامكان يتكوم في ملامح المخيم.. لون الحقيقة في إنفاس اللحظة كان يقرأ أية من القرآن الكريم بأن "لا تقل لهما أف ولا تنهرهما" وبنفسجية أبواب الله كانت وأدراج السماء وقفت تمتص عيوننا من إنجماد الفلسفة، هي لا ترى.

أكرسي البرتقالي مقلوب على الطاولة، المنفضة الآن كأس القهوة الفارغة، لا أسمع.. لا.. أسمع كركعات العربية الحديدية تأخذ السكنية إلى عالم من إسمنت، وتترك لوعي الحالة القليل من كثافة الفكرة.. أتسمعي؟ ورد الصحراء فاقع اللون كالمنطقة الأولى في ذوق إرتداء الملابس، وأصواء المدينة تبرز أول غريزة فينا، إحساس بريء يفهمه أول القلب فيدرك.. أتعرف؟ كنت أحمل في جيبى بضع أحجار صغيرة، البنطلون المرقش بألوان الشيوخوخة يتمغط من كثرة العناب، هل ذاب؟ أم هي إنتهت ألوانه في تقمصات الذات وفي صوت بائع الجريدة؟ أكتيني على رغيغ الخبز كأرنب صغير يتحرش بنعومة التراب، ها هم الصيادون يأتون لجلدي الذهبي يلوحون ببنادق النشوة، أتعرفوني؟! حمراء عيون مغارات الليل عندما نفهم سر المكان! فنزداد قسوة! غبش الزجاج الأزرق يذكرني بحدة تناقل الأشياء في اللامساحة، الطقس بارد، وصوت تنفس المتقهونون بيعث بخارا من حلقات شبة تحت قميص ضيق. ألتلح من خلف الزجاج يزغزغ الرؤيا، تذكرت يوم كنت تجيئين الى غرفتي كرائحة الشهوة، وتقولين ... جئت أغني! كنت أحس بأنني قماشاً مشروطاً باليد.... شششششششلت.... كرشيندو. وأنت تجلسين كالقرو على المفعد الصغير. والغريزة في فضاء الغرفة، طفل مدلل تستفزه الحالات الحمراء. أفلم تعرفي كيف كان الصبح يستنفيق على صوت الحساسين وعلى الشيخ إمام ويختبئ وراء شجرة السرو حتى يغيب؟ طللت عليك في كل مساء حتى تعبت من إقتضاب لون الزهر في وجه القمر. أحببت غلي الشاي على الشباك الصغير، بلا مائدة ولا نبي ولا حجر: "غني لي شوية شوية، غني لي وخذ عيني." وتقولين جئت أغني؟! ليس الغناء لحنا... بل قدر.

ها هو .. يأتي

لا .. ها هو .. لا

يأتي .. لا .. ها هو ينظر ..

ينظر إلي نظرة بعيدة ..

يقف في الهواء ويحدق.

من خلفه أعشاش الطيور تتفتت في إنشلاح ورق الشجر وإنكشاف الضوء في الزوايا المظلمة. قطار المسافات السريعة يحطم الإحساس بالمكان، وباهتة تلك الأشياء عندما نفهمها، وعنيفون نصيح، كلما فهمنا أكثر. التحول تجاوز، والتجاوز أمل. لم نعد بحاجة لصوت الطبيعة وسكون الكائنات، إضاءة النيون تتسطح في الذهن كمشرفة موتى:

لكم وجوها من دخان السيارات وجاكيتات الفرو،

لكم سماءً من الستانلس ستيل والأقمار الصناعية

لكم في الروح من روحنا نزوة

ولكم في الأمس من يومنا ساعات

والحياة متحف.

في الجدار الصخري تتصدع حفيفية الحواجز وأمر عبري ككرة بنفسجية من ضوء تتنلظ في زوايا الغرفة. الجسد باهت، وأتكوم فوق وسادتي كالجرد الصغير، وفي العينين طبقة من غبش النوم. سطح الأشياء كشلل الأطفال يعكر التنفس في قاع المعدة كفلسفة موت، كإكتمال تجرية، عمق زمان وأفق مكان. الكتفين مشدودان بأوتار البيانو والصوت ينتقل بين الحواس كتلج. القلب يتوهج بين الجسد والوعي كفحم حجري متقد. أمر ... وأقف ... أنظر ...

أرى قطيعا من "البفلو" يحدق في وسط ضجيج الهجرة، في العينين طبقة من غيش النوم وأحس كالطفل الصغير المنكمش على أحلامه. يخيفني حلم الوعي ... فينقد القلب ويحدق القطيع كالتفات جنود في عرض عسكري: "يكفي،" قلت، ولم أكن بعد بين النشوة والنزوة ...  
يكفي غبار الحلم يكفي ...

في وسط دائرة القطيع وقف هو هناك، فبعة كبيرة من ريش ولباس تقليديين. تكنت يدها، وملامح وجهه الخشنة تهز جماجم وما بيننا من صمت. "البفلو" توقف تدريجيا عن الدوران حوله ووقف القطيع يتربطني من دون توقف: "لماذا جئت،" قال. "جئت لأعرف عنكم ما لم يعرفه أحد." كان الغبار يتطاير، يحاول الهبوط في الأجواء الحمراء لحقيقة الرؤيا. "تقولون ذلك خوفا من أنفسكم، لماذا جئت؟"  
"أريد أن أعرف شيئا عنكم."

ألم تعرفه بعد؟

لا، ليس بعد!

أستعرفه قبيل قتلي؟

ليس لقتل بل لفهم

ليس لفهم بل لشفقة

هأيتك في الحلم تهلل، أحسست أن شيئا ما تريد أن تقوله، أليس كذلك؟

الحلم رآك قبل أن تعرفني، فعرفتني عندما عرفت أنك تفهم لتقسو، لا لتبرأ!

ماذا كان يفعل "البفلو" هناك؟

يبكي، يعرفك ويبكي، قال أجدادنا أن هنالك حكمة في هذه العشرة الحميمة، هنالك قلب، جمال، حزن وقدر. لا أظنك تعرف، تريد أن تكون أرنا، لا نسرا.

الأرنب بريء

الشفقة تبرير حب، والحب تبرير شجاعة

ماذا كنتم أنتم تفعلون هناك؟

في الغابة الحمراء صنعنا القليل من النبيذ ومضغنا تبغا غامقا كجبال "يوتا"، أصل الطبيعة ولد هنا، ونحن من الطبيعة وعدا للآلهة

هم لا يعرفون، وأشار بيده الى الخلف

هم دون أن يعرفوا، فالمعرفة جراءة

وهم جريئون، جاءوا هنا و ...

أجبرأه أحيانا جبن من أن يعرفوا ... أتقهم لتقسو؟ أم تقسو لأنك لتسيء الفهم؟

لا أدري ماذا تقول! القسوة قسوة الأشياء علينا

أنت لا تعرف كيف تفهم، لذا تقسو

أليس جبن أن لا تعرف كيف تفهم القسوة؟

جبن أن تشفق على العارفين، فتقسو

علمني

لا شيء لك في السماء ولا في الأرض فأقتل ما شئت من خوفك وتتكبر في فضاء الصحراء وكن ظلا لحجر

أتعلمني؟

إستفق لتعلم بالهاجس، ولا تنتهي في القلب وجع قديم إن للقلب في الفهم أصالة وعمق.

أريد من القلب الذاكرة الأولى للأشياء، الاحساس الطري بحيوية الأمكنة والأمكنة، أريد من القلب أصل الجمال، حرية المعدة وحنان الكينونة واللاكينونة. أريد من الأمس ولادة النشوة، فهم التجاوز واللاتجاوز. أريد من نفسي نفسي، لمس المساحة واللامساحة. أريد تشابك دوائري، جسدي، وغرفة من نور في حجم نافذتي. أريد من البحر لغز العمق، لغة الحيتان وعجز الارادة عن العرق. أريد من الصبح لون القمح، رائحة الزعر البري وخرخشة صحوة العصافير. أريد من الفن لغة الحواس "ظل الأشياء" وجسد الهاجس. أريد من الصديق الند بالند، فهم حالات القلب، الوعي، الجسد والنشوة. أريد من أمي أن تسألني من أنت. أريد صحن سحلب، وقبلة خلف أذني. أريد من الحي عنوانا لبيتي، بروازا لصورة جدي، تصريحاً بالمرور بالليل. أريد من الحي أن يحيا فيه حي، أن يشرب الناس النبيذ على السور قبيل الفجر نخب الشمس. أريد من الصبر نضوج الرؤيا ومن اللاصبر وعي الحقيقة. أريد من الأمل طاقة

التحول ومن الأمل ألم الحقيقة. أريد من التفاؤل حياة الجمال ومن اللاتفاؤل تمرد الحواس. أريد من أختي شأني، من البرد حافة الخوف، ومن السجن اختراق الكون من السقف. أريد من الصحراء لون الكلام، بداية المساحة وانحسار المكان. أريد من الوطن حبي، كرهني، ووحى الطبيعة. أريد من السماء ذنب الأشياء، ومن الأرض وردة، ذاكرة الحجارة وكوفية أصلية، وماء. أريد من الليل عزلتي بأشيائي، قنديل الزيت، عري سريري وتوقد حدة ذاتي. أريد من الأسماء حرف الحاء، والعين والغين والحاء، ومن اللغة شرق الشعر، نزق، عبث، خمر ونساء. أريد من كأسني رأسي، ومن فتات الخبز اندهال، ومن تيقن امرأة نظرة، وانعدام فوقية من الجبال. أريد ممن في أن يدرك العوالم في، سخط الكبرياء، حاجة التنقل وتجاوز مضغ الذاكرة والأشياء "والحديث" عن القلب من القلب الى القلب.

تعز علي أزمنا الدفاء، موقد الحطب واحمرار أذني وحبوب الكستناء على الجمر. تعز .. تعز .. وأنا أتذوق العناب المسروق، واللوز المخملي وعندما استرقت السجارة الأولى في وادي الصنوبر. كتبت اسمي على سنسلة، على جذع شجرة، على وردة، صمت، وريح. علي، على أوراق صفراء ورمل أحمر. هي تلك الكنكنات التي تجعل للجينة البيضاء المحمص طعما اخر، ولفنجان القهوة ألف عالم. هي تلك الكنكنات التي تحملها الطيور الينا بعد سنين لتذكرنا بانمحاء الأسماء، بقسوة الحواس وأصل الوعي. تعز علي .. وأنا أودع كل الأمكنة أن أبعث لما تبقى من النقش رسالة عن زلزلة الأشياء الخام وتشرذم الأصل فس الأصل. أمشي ويدي تلوحان كلاعب سيرك يمشي على الحبل، طمعا في حافة النشوة. أمشي وعينايا تلاحقاني، تقبر أمسا فوق أمسي وتأخذني نحو أول عود، نحو فكرة من وتر في سماء من شجر النخيل. أشم رائحة الشتاء في خبز البيت ويعز علي موسم الزيتون وطبخ العدس وشرب العرق وشعر فلما ذهبيا من امرأة كانت حبيبتني. أمشي والفراشات تبحث في عن لون أجنحة الشوك في حبيبات الندى. تقف فوق رموشي تداعب الرؤيا فتصحو من الجبال أصوات الشنانير وينقش ضباب، ألم، دم وسهم. أترك في البر عصاتي المعكوفة تحديا لنفسني فأسمع، ولا أرى في القلب من كان يهمس في الضوء حرير الحر وشمع الكلام، فأظل أمشي، عصاتي خلفي في انجدال الأفق ولون الشمس. خبأت في شجر الخروب عند الغروب وعدي الصغير، وراقبت الشارع في ملامح المارة فاستدركتني خيبة الوجوه وانحدار أمل الملامح. وكانت تنشط في الصيف أطراف ظل الرصيف لبعض قبائل النمل التي تجرش الورق تحت ابطي، فتذكرت سرقة الدجاج والزغاليل وشوي الخريف في قلب كذبة بيضاء في البيت القديم تتلصص كالطعام في طريق المتسكعين وعلى نمل الحواكير، فعزت علي ماهية الأشياء وصعلكة نافذة الفتيات وعد النجوم بين التواليل فوق السطح بين الشعر وتحت الأنف، وفي السر. تعز سمراء كانت تمر في الحي عند المساء فيضيء قنديل الساحة ونقف مدهولين كملقط الغسيل، أفواها مفتوحة كحجر أرانب وأقول: تقبل الله من الجمال ما لم يقبله من الصيام، أيا لبيت شعري يخلع القميص حرية فأجد للنهدين طريقا بلا خيار ولا سهام.